۲۳۔ وحیدالدین، سید، روزگار فقیر، لاہور، امجد اکیڈمی، س، ن، ص ۶۶

۲۴۔ ششماہی روشنی، ص ۱۵، شمارہ: ۱۰، جنوری تا جون ۲۰۱۰ء

۲۵۔ نعیم صدیقی، عورت معرض کشمکش میں، لاہور، الفیصل ناشران وتاجران کتب، ۲۹۹۳ء، ص ۱۳۳

۲۶۔ موسیٰ خان، جلال زئی، این جی اوز اور قومی سلامتی کے تقاضے، فیروز سنز، لاہور، ۲۰۰۰ء، ص ۶۸، ۶۷

۲۷۔ سمیحہ راحیل، قاضی، نیا دور، نئے چیلنجز اور مسلمان عورت، ص: ۵، لاہور، ویمن اینڈ فیملی کمیشن

28. wilkins,RichardG.Prof,Protectingthefamilyandmarriageinaglobalsociety, Encounterjournalofinterculturalperspective,Vol16,Sep2000

۲۹۔ روزنامہ پاکستان، ۱۳ اگست ۲۰۱۲ء

۳۰۔ بنت رانا عبدالستار، ماہنامہ: نقیب ختم نبوت، پاکستان، شمارہ: ۸، اگست ۲۰۱۱ء

۳۱۔ ماہنامہ محدث، ستمبر ۲۰۰۰ء، ج: ۳۲، ش: ۹، ص ۲-۶

۳۲۔ سہ ماہی خبرنامہ، فروری ۱۹۰۰ء، ج: ۱، ش: ۱، ص ۲۰

۳۳۔ سہ ماہی خبرنامہ، فروری ۲۰۰۰ء، ج: ۶، ش: ۱، ص ۳

۳۴۔ ماہنامہ صدائے آدم، فروری ۲۰۰۰ء

۳۵۔ ماہنامہ جہد حق، پاکستان کمیشن برائے انسانی حقوق، مارچ ۲۰۱۳ء، ص ۲۷

۳۶۔ ایضا

۳۷۔ این جی اوز اور قومی سلامتی کے تقاضے، ص: ۱۴۱-۱۴۰

۳۸۔ ماہنامہ ترجمان القرآن، ستمبر ۲۰۰۶، ج: ۳۳، ش: ۹، ص ۶۲

مزید تفصیلات کیلیے: ماہنامہ محدث، مئی ۱۹۹۹ء، ج: ۳۱، ش: ۵، ص ۵۹-۵۶

التزام القرطبي شروطه في التفسير

(دراسة تحليلية)

هارون الرشيد*

إن خير ما بذلت فيه الجهود واشتغل به العلماء تعليما وتفسيرا وتفهما ودراسة واستنباطا كتاب الله الذي ﴿لَايَأْتِيهِالْبَاطِلُمِنْبَيْنِيَدَيْهِوَلَامِنْخَلْفِهِتَنْزِيلٌمِنْحَكِيمٍحَمِيدٍ﴾ (1) فهو كتاب هداية ودستور أمة هي خير أمة أخرجت للناس ، ولقد تكفل الله بصيانته وحفظه كما قال تعالى:

﴿إِنَّانَحْنُنَزَّلْنَاالذِّكْرَوَإِنَّالَهُلَحَافِظُونَ﴾ (2)

ويسر درسه كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْيَسَّرْنَاالْقُرْآنَلِلذِّكْرِفَهَلْمِنْمُدَّكِرٍ﴾ (3)

وإن من وسائل حفظه وتيسير درسه أن يهتم زبدة العلماء قديما وحديثا بتفسيره وتوضيح غامضه والكشف عن أسراره وبيان عجائبه ، والإحاطة بآيات الأحكام فيه لمعرفة الحلال والحرام والوقوف عند المأمورات والمنهيات واستنباط حكم الأحكام والتشريعات.

ولقد كان للعلماء القدامي رحمهم الله اليد الطولي في تفسير القرآن بوجه أعم وفي تفسير آيات الأحكام بوجه أخص ، فهم الذين أسسوا طرق الاستنباط والاجتهاد ورسموا مناهج ومعايير لتفسير آيات الأحكام اتبعها المفسرون الجدد في مؤلفاتهم فيما بعد فكشفوا لهم عن مناهج وأساليب جديدة مما أدي إليه اجتهادهم.

والمراد بمناهجهم الطرائق والخصائص والشروط التي تميز بها مؤلفاتهم والتي اتبعوها في تفاسيرهم فأصبحت قواعد لهم في تفاسيرهم أو أصبحت مميزات وخصائص لهم فيها. ولمعرفة مناهجهم وشروطهم طريقان: أحدهما: أن يعلم شروط المفسر ومنهجه عن طريق الاستقراء التام أو الاستقراء الأغلبي حيث يتتبع تفسيره من أوله إلي آخره أو يتتبع أغلبه فيعرف منهجه وشروطه التي اتبعه فيه.

ثانيهما: أن ينص المفسر علي شروطه في بداية تفسيره أو في مواضع متفرقة منه فتكون تلك الشروط المنصوصة منهجا له متبعا في تفسيره كما نص ابن كثير وأبو حيان في تفاسيرهما وكما نص الإمام القرطبي عليها بوضوح في مقدمة تفسيره الذي يعتبر من أجل التفاسير وأعظمها نفعا.

فهذه الشروط التي نص عليها القرطبي – والتي نحن بصددها في هذا المقال – نذكرها من مقدمة المؤلف ثم نبين مدي التزامه بها في تفسيره مع بيان بعض الأمثلة منه.

قال القرطبي رحمه الله في مقدمة تفسيره: " وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلي قائليها والأحاديث إلي مصنفيها ، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلي قائله ، وكثيرا ما يجئ الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع علي كتب الحديث ، فبقي من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم ، ومعرفة ذلك علم جسيم . فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتي يضيفه إلي من خرجه من

*أستاذ مساعد قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية،الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد، باكستان

الأئمة الأعلام والثقات المشاهير من علماء الإسلام ونحن نشير إلي جمل من ذلك في هذا الكتاب والله الموفق.

للصواب . وأضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، إلا ما لا بد منه ، ولا غنى عنه للتبيين ، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفر عن معناها ، وترشد الطالب إلي مقتضاها ، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول ، والتفسير، والغريب. والحكم . فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ... وهكذا إلي آخر الكتاب ." (4)

نلخص هذه الشروط فيما يلي:

1- إضافة الأقوال إلي قائليها ونسبة الأحاديث إلي مخرجيها ، لا سيما الأحاديث المبهمة من حيث التخريج الواردة في كتب الفقه والتفسير حتي يسهل الاحتجاج والاستدلال بها.

2- الإعراض عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا إذا دعت الحاجة إليها لتبيين شيء من كلام الله وذلك في أضيق الحدود.

3- الاهتمام بتبيين آيات الأحكام وتفسيرها بذكر ما لها من أسباب النزول ، وتفسيرها ، وشرح غريبها وتوضيح الأحكام الواردة فيها.

4- الاكتفاء بذكر التفسير والتأويل للآيات التي لم يرد فيها حكم.

الذي يقرأ هذا التفسير يجد أن القرطبي رحمه الله قد وفي بما شرط علي نفسه في هذا التفسير إلي حد كبير فهو يعرض لذكر أسباب النزول ، والقراءات ، والإعراب ، ويبين الغريب من الألفاظ ، ويحتكم كثيرا إلي اللغة ، ويكثر من الاستشهاد بأشعار العرب ، ويرد علي الفرق كالمعتزلة والقدرية والروافض والفلاسفة وغلاة المتصوفة ، ويفيض في ذكر الأحكام مع بيان الخلاف فيها.

وسبب هذا التبحر العلمي وسعة الاطلاع كثرة موارده التي استقي منها تفسيره ، فمن أهم مصادره:

تفسير ابن جرير الطبري ، المحرر الوجيز لابن عطية ، أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص ، أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي المالكي ، أحكام القرآن للكيا الهراسي ، النكت والعيون للماوردي ، بحر العلوم للسمرقندي ، معالم التنزيل للبغوي ، الوسيط للواحدي وأسباب النزول له أيضا ، معاني القرآن وإعراب القرآن والناسخ والمنسوخ للنحاس ، التمهيد والاستذكار لابن عبد البر ، معاني القرآن لكل من الأخفش والفراء والزجاج ، مجاز القرآن لأبي عبيدة ، القبس شرح الموطأ لابن العربي ، المدونة لأقوال مالك ، المنتقي لأبي الوليد الباجي ، عقد الجواهر الثمينة لابن شاس ، البرهان للجويني ، غريب القرآن لابن قتيبة ، غريب الحديث والناسخ والمنسوخ لأبي عبيد القاسم بن سلام ، معالم السنن وأعلام الحديث للخطابي ، جامع البيان والتيسير والمقنع لأبي عمرو الداني ، الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري ، مجمل اللغة لابن فارس ، تهذيب اللغة للأزهري ، الكتب التسعة في الحديث، مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ، مسند البزار ، صحيح ابن حبان ، سنن الدارقطني ، سنن البيهقي ، السير والمغازي لابن إسحاق ، المغازي للواقدي ، وغير ذلك من المصادر العلمية.

عزوه الأقوال إلي قائليها والأحاديث إلى مخرجيها

وكان القرطبي يعزو الأقوال إلي قائليها غالبا كما شرط علي نفسه في المقدمة ، وقد كانينسب القول إلي غير قائله او نحمل نقله علي أنه نقله عنه بواسطة ، فمثلا في بيان الأحرف السبعة نقل قولا عن ابن عبد البر فقال:

" قال ابن عبد البر: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت إلي ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة ، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن إلي حرف واحد. " (5)

هذا القول في الحقيقة ليس لابن عبد البر وإنما هو قول الإمام الطحاوي الذي ذكره في كتابه " مشكل الآثار "(6) وقد نقله عنه ابن عبد البر بتامه في كتابه " التمهيد " (7) فيمكن أن يكون نقله عن الطحاوي بواسطة ابن عبد البر.

ومن أسلوبه في عزو الأحاديث إلي مخرجيها أنه يذكر نص الحديث بتمامه ثم يعزوه إلي من خرج هذا النص ويعزوه كذلك إلي من خرج ما يؤيد معني ذلك النص ، فيجب التنبه إلي هذا الأسلوب حتي لا ينسب إليه الخطأ أو الوهم في العزو ، مثاله قوله في مقدمة تفسيره في موضوع جمع القرآن: " قال ابن شهاب: واختلفوا يومئذ في ((التابوت))،فقال زيد: ((التابوه)). وقال ابن الزبير وسعيد بن العاصي: ((التابوت))، فرفع اختلافهم إلي عثمان، فقال: اكتبوه بالتاء ، فإ . نزل بلسان قريش. أخرجه البخاري والترمذي."(8) فهذا نص سنن الترمذي(9) إلا أن الإمام البخاري خرج في صحيحه ما يؤيد معني هذا النص ، فأخرج عن ابن شهاب بسند أنس بن مالك أن عثمان أمر زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف وقال لهم إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش فإن القرآن أنزل بلسانهم ففعلوا. (10)

وقد يكون من عنده تصرف في النقل بحيث أن العزو يشير إلي أن الرواية المذكورة موجودة في المرجع المعروف مع أن الأمر لا يكون هكذا. مثاله ما نقله عن ابن عبد البر في قراءة قوله تعـــــالي: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُحَتَّىحِينٍ﴾(11) حيث نقل: " وقال آخرون: أما بدل الهمزة عينا ، وبدل حروف الحلق بعضها من بعض ، فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجلة ، واحتجوا بقراءة ابن مسعود: {لَيَسْجُنُنَّهُعَتَّىحِينٍ} ، ذكرها أبو داود." (12)

فقوله : " ذكرها أبو داود " يوهم أنها في سننه مع أنها ليست مذكورة في سننه وإنما هي رواية رواها ابن عبد البر بإسناده من طريق أبي داود حيث قال: " أخبرنا عبد الله بن محمد قال حدثنا محمد بن بكر قال حدثنا أبو داود قال حدثنا الحسن بن علي الواسطي قال حدثنا هشيم عن عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب الأنصاري عن أبيه عن جده أنه كان عند عمر بن الخطاب فقرأ رجل ﴿مِنْبَعْدِمَارَأَوُاالْآيَاتِلَيَسْجُنُنَّهُعَتَّىحِينٍ﴾ فقال عمر من أقرأكها ، قال أقرأنيها ابن مسعود." (13)

وأحيانا يحصل عنده نوع من اللبس في اسم المؤلف عند العزو فيكرر النقل عنه في موضوع واحد ظنا منه بأنهما شخصان،مع أنه شخص واحد وكان يكفيه النقل عنه مرة واحدة. مثاله ما نقل عن قطرب في تفسير قوله تعالي: ﴿لَايُحِبُّاللَّهُالْجَهْرَبِالسُّوءِمِنَالْقَوْلِإِلَّامَنظُلِمَ﴾ (14) حيث نقل:"وقال ابن المستنير:((إِلَّامَنظُلِمَ)) معناه: إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول كفر أو نحوه فذلك مباح.والآية على هذا في الإكراه،وكذا قال قطرب:((إِلَّامَنظُلِمَ))،يريد المكرَه ؛ لأنه مظلوم ، فذلك موضوع عنه وإن كفر،قال:ويجوز أن يكون المعنى ((إِلَّامَنظُلِمَ)) على البدل،كأنه قال:لا يحب الله إلا من ظلم ،أي لا يحب الله الظالم ، فكأنه يقول:يحب من ظُلم،أي يأجر من ظُلم. والتقدير على هذا القول : لا يحب الله ذا الجهر بالسوء إلا من ظُـــلم على البدل" (15)

فقوله: " وكذا قال قطرب " يوهم أن قطرب شخص آخر غير ابن المستنير مع أن قطرب هو نفسه ابن المستنير تلميذ سيبويه ، ذكر ابن خلكان ترجمته فقال : " أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد النحوي اللغوي البصري ، مولى سالم بن زيادة ، المعروف بقطرب ، أخذ الأدب عن سيبويه وعن جماعة من العلماء البصريين ، وكان حريصا على الاشتغال والتعلم ، وكان يبكر إلى سيبويه قبل حضور أحد من التلامذة ؛ فقال له يوما: ما أنت إلا قطرب ليل ، فبقي عليه هذا اللقب ، وقطرب: اسم دويبة لا تزال تدب ولا تفتر. وله من التصانيف كتاب معاني القرآن. " (16)

وفي الحقيقة ما نقله عن ابن المستنير ، نقله عنه بواسطة ابن عطية عنه في المحرر الوجيز (17) ، إلا أنه لم يشر إليه. وما نقله عن قطرب ، نقله عنه بواسطة النحاس عنه في معاني القرآن (18) من غير الإحالة إليه.

وقد لوحظ أيضا عند عزو الأحاديث إلى رواتها أنه حصل شيء من السهو في عزو بعضها حيث نسبها إلى غير رواتها ، فمثلا حديث أبي هريرة نسبه لعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما حيث قال: " روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع رسول الله صلي الله عليه وسلم إذ سمع وجبة ، فقال النبي صلي الله عليه وسلم: تدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا ، فهو يهوي في النار الآن ، حتي انتهي إلي قعرها. " (19)

هذا حديث رواه الإمام مسلم وابن حبان وأحمد بن حنبل وأبو يعلي الموصلي ، كلهم رووه بأسانيدهم عن أبي هريرة رضي الله عنه. (20)

مثال آخر ، حديث عبد الله بن أبي أوفى الذي نسبه لأبي واقد رضي الله عنه ، حيث قال : " روى ابن ماجه في سننه والبيهقي في صحيحه عن أبي واقد ، قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : ما هذا ؟! فقال : يا رسول الله ، قدمت الشام ، فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم ، فأردت أن أفعل ذلك بك ، قال : فلا تفعل ؛ فإني لو أمرت شيئا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ، حتى لو سألها نفسها وهي علي قتب لم تمنعه ." (21)

فهذا حديث رواه ابن ماجه وابن حبان وأحمد بن حنبل عن عبد الله بن أبي أوفي (22) ، ورواه البزار عن زيد بن أرقم (23) ، ورواه ابن أبي شيبة عن أبي ظبيان (24) ، ولكن لا يوجد لهذا الحديث طريق فيه أبو واقد الليثي رضي الله عنه .

التزامه بتبيين آيات الأحكام وتفسيرها:

هذا شرط التزام القرطبي به واضح وجليوهو الموضوع الرئيسي لتفسيره والطابع الغالب عليه، فنري أنه يفيض في ذكر مسائل الخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قرب ، وما تعلق بها عن بعد ، مع بيان أدلة كل قول. وأحيانا يستطرد في ذكر المسائل إلي درجة أن القارئ يظن أن ما ذكره من مباحث لا تمت إلي التفسير بصلة ، ولكن المسألة نظرية؛ لأن المذكور ربما يكون استطرادا لا طائل تحته في نظر قارئ ، بينما يكون نفس المذكور في نظر الآخر في غاية الأهمية ، فمن هنا لا يكون اقحامه باستطراد غير مفيد عدلا.

مثال ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالي : ﴿اسْكُنْأَنْتَوَزَوْجُكَالْجَنَّةَ﴾ (25) حيث ذكر معني (اسْكُنْ) والمشتقات الأخري من نفس المادة في ضوء استعمالات العرب ، ثم عقد المسألة الثانية من مسائل الآية وذكر فيها بعض المسائل المتعلقة بالسكنى ومفهوم ما يماثل السكنى من الأشياء التي تكون علي ملك أربابها ، ومنافعها لمن جعلت له ، كالعمرى ، والرقبى (العمرى: هي إسكانك الرجل في دار لك مدة عمرك أو عمره ، ومثله الرقبى: وهو أن يقول: إن مُتَ قبلي رجعتْ إلي ، وإن متُ قبلك فهي لك ، وهي من المراقبة ، لأن كل واحد منهما يرقب موت صاحبه) ، والإقفار والإخبال (مأخوذ من فقار الظهر ، أفقرتك ناقتي: أعرتُك فقارها لتركبها ، ومثله الإخبال ، يقال: أخبلتُ فلانا: إذا أعرتَه ناقة يركبها ، أو فرسا يغزو عليه) ، والمنحة (العطية ، والمنحة: منحة اللبن، والمنيحة: الناقة أو الشاة يعطيها الرجل آخر يحتلبها ثم يردها) ، والإطراق (إعارة الفحل ، استطرق فلان فلانا فحله: إذا طلبه ليضرب في إبله ، فأطرقه إياه ، ويقال: أطرقني فحلك أي أعرني فحلك ليضرب في إبلي ، وطرق الفحل الناقة يطرق طروقا أي قعا عليها). (26)

فهذه الكلمات يماثل السكنى في معناه من حيث أن الشيء يبقي علي ملك صاحبه والمنفعة تكون لمن جعلت له؛ فلهذه المناسبة (وهي واضحة جلية) ، ذكر القرطبي مفهومها العام وشيأ من مسائل السكنى والعمرى في غاية الإختصار لا يتجاوز عن بضعة أسطر، لكن رغم ذلك تعقبه أبو حيان في البحر بقوله: " وقد تكلم بعض الناس علي أحكام السكنى والعمرى والرقبى ، وذكر كلام الفقهاء في ذلك ، واختلافهم حين فسر قوله تعالي: ﴿اسْكُنْأَنْتَوَزَوْجُكَالْجَنَّةَ﴾ ، وليس في الآية ما يدل علي شيء مما ذكر." (27)

وبهذا الالتزام ظهر أن هذا التفسير أصبح موسوعة في تفسير آيات الأحكام ؛ لأن القرطبي رحمه الله حاول محاولة موفقة لاستيعاب ما يتعلق بآيات الأحكام كما وصفه ابن العماد في الشذرات: " والتفسير الجامع لأحكام القرآن ، الحاكي مذاهب السلف كلها ، وما أكثر فوائده ، وكان إماما علما ، من الغواصين علي معاني الحديث ، حسن التصنيف، جيد النقل." (28)

التزامه بالاكتفاء بذكر التفسير والتأويل للآيات التي لم يرد فيها حكم:

نص الإمام القرطبي في الشروط التي ذكرها في مقدمة تفسيره علي هذا الشرط وهو أنه سيكتفي بذكر التفسير والتأويل للآيات التي لم يرد فيها حكم ، وذلك حتي لا يظنن أحد أن الطابع الغالب علي التفسير هو الاستطراد والتفصيل في المسائل الفقهية فربما صاحب الكتاب يمر مرور الكرام علي الآيات التي ليس فيها حكم من الأحكام الفقهية! فقد تبين بدراسة هذا التفسير أن القرطبي رحمه الله التزم بهذا الشرط التزاما كاملا وفسر تلك الآيات تفسيرا أحسن من كثير من التفاسير الموجودة في ذلك العصر ، حيث فسرها بذكر أسباب النزول لها ، وبإبراز وجوه البلاغة فيها ، وبذكر القراءات وأنواع الإعراب فيها ، وببيان أقوال علماء المعاني في شرح مفرداتها وتوضيح غريبها فكأن تفسيره موسوعة في هذا النوع أيضا كما أنه موسوعة في استيفاء الأحكام والمسائل الفقهية.

وخير دليل علي هذا النوع تفسيره للسور المكية التي خوطب فيها أهل مكة بصفة خاصة الذين كانوا ألداء في الخصومة ، أهل مماراة ولجاجة في القول عن فصاحة وبيان ، وثنيين مشركين ، منكرين ومكذبين الوحي ؛ فلما كان القوم كذلك نزل الوحي المكي قوارع زاجرة وشهبا منذرة وحججا قاطعة يحطم وثنيتهم في العقيدة

ويدعوهم إلي التوحيد الخالص ويقيم :لائل النبوة ويتحداهم –على فصاحتهم– بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ، فلم يكن ذكر الأحكام العملية قبل بناء العقيدة وترسيخها في القلوب مناسبا.

نذكر من تفسيره بعض النماذجلالتزام هذا النوعمن التفسير، فمثلا:

عند تفسير قوله تعالي: ﴿الْحَمْدُلِلَّهِالَّذِيخَلَقَالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضَوَجَعَلَالظُّلُمَاتِوَالنُّورَثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (29) ذكر خمس مسائل: الأولي منها تشتمل علي بيان وجه المناسبة لذكر الحمد في بداية السورة مع أن غيرها –وهي الفاتحة– قد افتتح بالحمد لله وكان الاجتزاء به مغنيا عن ذكره هنا لكنه قال: " لكل واحدة منه معني في موضعه لا يؤدي عنه غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة وأيضا لما فيه من الحجة في هذا الموضع علي الذين هم بربهم يعدلون." (30)

وذكر في المسألة الثانية معني كلمة الخلق تعني الاختراع والتقدير وكلاهما مراد هنا. ثم ذكر أن التعبير بالخلق دليل علي حدوث السماوات والأرض وأن الله تعالي خالق كل شيء ، فرفع السماء بغير عمد وجعلها مستوية من غير أود وجعل فيها الشمس والقمر آيتين وزينها بالنجوم وأودعها السحاب والغيوم علامتين وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات وبث فيها من كل دابة آيات جعل فيها الجبال أوتادا وسبلا فجاجا وأجري فيها الأنهار والبحار وفجر فيها العيون من الأحجار دلالات علي وحدانيته وعظيم قدرته وأنه هو الله الواحد القهار وبين بخلقه السماوات والأرض أنه خالق كل شيء. (31)

وذكر في الثالثة كلاما طويلا نقلا عن البيهقي في سند الحديث الذي خرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا في شأن خلق الأرض قال: " أَخَذَرَسُولُاللَّهِ صَلَّىاللَّهُعَلَيْ هِوَسَلَّمَبِيَدِيفَقَالَخَلَقَاللَّهُعَزَّ وَجَلَّالتُّرْبَةَيَوْمَالسَّبْتِوَخَلَقَفِيهَاالْجِبَالَيَوْمَالْأَحَدِوَخَلَقَالشَّجَرَيَوْمَالِاثْنَيْنِوَخَلَقَالْمَكْرُوهَيَوْمَالثُّلَاثَاءِوَخَلَقَالنُّورَيَوْمَالْأَرْبِعَاءِوَبَثَّفِيهَاالدَّوَابَّيَوْمَالْخَمِيسِوَخَلَقَآدَمَعَلَيْهِالسَّلَامبَعْدَالْعَصْرِمِنْيَوْمِالْجُمُعَةِفِيآخِرِالْخَلْقِفِيآخِرِسَاعَةٍمِنْسَاعَاتِالْجُمُعَةِفِيمَابَيْنَالْعَصْرِإِلَىاللَّيْلِ." (32)

وفي المسألة الرابعة فسر جملة: ﴿وَجَعَلَالظُّلُمَاتِوَالنُّورَ﴾ فرأي أن هذا ذكر خلق الأعراض بعد ذكر خلق الجواهر لكون الجوهر لا يستغني عنها وما لا يستغني عن الحوادث فهو حادث. ثم فسر الجوهر والعرض واستنتج أن هذه المصطلحات وإن لم يكن لها ذكر في الصدر الأول فقد دل عليها معني الكتاب والسنة فلا معني لإنكارها وقد استعملها العلماء واصطلحوا عليها وبنوا عليها كلامهم وقتلوا بها خصومهم. ثم ذكر معني الظلمات والنور وأبرز وجها بلاغيا في أن الأرض المذكور في الجملة السابقة اسم للجنس فإفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها وكذلك النور وعليه يتفق اللفظ والمعني في النسق فيكون الجمع معطوفا علي الجمع والمفرد معطوفا علي المفرد فيتجانس اللفظ وتظهر الفصاحة ، وقيل: جمع الظلمات ووحد النور ؛ لأن الظلمات لا تتعدي والنور يتعدي. (33)

أما المسألة الخامسة ففيها تفسير لقوله تعالي: ﴿ثُمَّالَّذِينَكَفَرُوابِرَبِّهِمْيَعْدِلُونَ﴾ حيث ذكر معني يعدلون ، ثم نقل عن ابن عطية سر اختيار العطف بـ {ثم} بدل الواو فقال إن {ثم} دالة علي قبح فعل الكافرين لأن المعني: أن خلقه السماوات والأرض قد تقرر وآياته قد سطعت وإنعامه بذلك قد تبين ثم بعد ذلك كله عدلوا بربهم فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمني ولو وقع العطف بالواو في هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم. (34)

مثال آخر مأخوذ من تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ. يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (35)

حيث ذكر سبب النزول لهذه الآيات نقلا عن ابن عباس وهو أنه لما نزلت ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (36) قال الكفار: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا فقالوا: ما نري شيئا فنزلت: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ (37) فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة، فامتدت الأيام فقالوا: ما نري شيئا فنزلت: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (38)

ثم ذكر أن {أتى} بمعني يأتي لأن أخبار الله تعالي في الماضي والمستقبل سواء ؛ لأنه آت لا محالة. ثم أطال في بيان القراءات في {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ} حيث ذكر ست قراءات فيها. (39)

وهكذا نجد التزامه بما اشترط علي نفسه من إشباع في التفسير والتأويل لما لم يرد فيه حكم شرعي حيث يهتم بذكر أسباب النزول، وشرح المفردات، وغريب القرآن، والقراءات المتنوعة، ووجوه البلاغة والإعراب وغيرها من المباحث التفسيرية غير الأحكام، وبالتالي فإن الباحث يجد في هذا النوع من التفسير عنده ما يغنيه عن كثير من التفاسير المكتوبة في غير الأحكام.

تعامله مع القصص والأخبار:

لم يسقط القرطبي رحمه الله القصص والأخبار بالمرة ، وإنما أضرب عن كثير منها كما ذكر في المقدمة. ولكن لوحظ عليه أنه استطرد في بيان بعض الأخبار الإسرائيلية بدون التعقيب عليها والتنبيه علي أنها روايات خرافية لا أساس لها. مثال ذلك استطراده في قصة عوج بن عناق في تفسير قوله تعالي: {قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ} (40) فذكر أن طوله كان ثلاثة آلاف وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا ، وكان يحتجن السحاب، أي يجذبه بمحجنه ويشرب منه، ويتناول الحوت من قاع البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله ، وأنه حضر طوفان نوح عليه السلام ولم يجاوز ركبتيه ، وكان عمره ثلاثة آلاف وستمائة سنة، وأنه قلع صخرة علي قدر عسكر موسى ليرضخهم بها، فبعث الله طائرا فنقرها فوقعت في عنقه فصرعته ،وأقبل موسي عليه السلام وطوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع وترقى في السماء عشرة أذرع ، فما أصاب إلا كعبه وهو مصروع فقتله ، ووقع علي نيل مصر فجسرهم سنة. (41)

يستغرب من فقيه مثل القرطبي أن يذكر مثل هذه الروايات التالفة التي كانت مضرب الأمثال في الاختلاق والكذب ، وأعجب من ذلك عدم تعقيبه عليها والتنبيه علي أنها ما ينبغي الاعتماد عليها. وقد قال ابن كثير عنها: " وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا أخبارا من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأنه كان فيهم عوج بن عنق وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلاث ذراع تحرير الحساب! وهذا شيء يستحي من ذكره." (42)

وذكر ابن قيم رحمه الله هذه الراوية مثالا لما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه، ثم قال: وليس العجب من جرأة هذا الكذاب على الله، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره ولا يبين أمره، وهذا عندهم ليس من ذرية نوح وقد قال الله تعالى : {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} ، فأخبر أن كل من بقي علي وجه الأرض من ذرية نوح، فلو كان للعوج – هذا – وجود ، لم يبق بعد نوح... وأيضا فإن بين السماء

والأرض مسيرة خمسمائة عام، وسمكها كذلك، وإذا كانت الشمس في السماء الرابعة، فبيننا وبينها هذه المسافة العظيمة، فكيف يصل إليها طول ثلاثة آلاف ذراع، حتى يشوي في عينها الحوت؟ ولا ريب أن هذا وأمثاله من وضع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا السخرية والاستهزاء بالرسل وأتباعهم. (43)

مثال آخر ما ذكره في سفينة نوح عليه السلام من أن نوحا مكث يغرس الشجرة مائة عام لعمل السفينة وأنه عملها ببقاع دمشق في سنتين وفي رواية كعب في ثلاثين سنة ، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون وكانت من خشب الساج ، وكانت ثلاث طبقات ولها ثلاثة أبواب ، وغير ذلك من الأخبار الإسرائيلية في شأن هذه السفينة. (44) ولم يعقب بعد ذكرها تعقيبا أو تنبيها علي عدم ثبوتها. ونعم ما ذكره الآلوسي من التعقيب في هذا المقام حيث قال: " وسفينة الأخبار فى تحقيق الحال فيما أرى لا تصلح للركوب فيها ، إذ هي غير سالمة عن عيب ، فالحري بحال من لا يميل إلي الفضول أن يؤمن بأنه عليه السلام صنع الفلك حسبما قص الله تعالى فى كتابه ولا يخوض في مقدار طولها وعرضها وارتفاعها ومن أي خشب صنعها وبكم مدة أتم عملها إلي غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب ولم تبينه السنة الصحيحة." (45)

وفي الجملة فإن الإمام القرطبي رحمه الله قد بذل مجهودا كبيرا فى خدمة كتاب الله عز وجل ، وحقا يعتبر تفسيره موسوعة ، ليس فقط في الفقهيات والأحكام وإنما في أسباب النزول والقراءات والإعراب وبيان الغريب من الألفاظ أيضا. وقد وفي بما التزمه من الشروط وتحرى الصواب والسداد فيما كتب ، وكتاب ضخم مثل هذا قل أن يسلم مؤلفه من بعض السهو ، ولكن هذا لا يعني بأي حال التقليل من شأن هذا التفسير ؛ فإن الكمال ثابت لله فقط. وصدق ما قاله ابن فرحون عندما وصف هذا التفسير : " هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا." (46) والله أعلم.

الهوامش

1- فصلت: 42

2- الحجر: 9

3- القمر: 17

4- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، مقدمة الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان: 8/1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1427 هـ - 2006 م.

5- المصدر السابق: 73/1

6- انظر: الطحاوي ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي ، مشكل الآثار : 133/7 ، مؤسسة الرسالة بيروت 1415 هـ

7- انظر: ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: 294/8 ، مؤسسة القرطبة

8- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن: 89/1

9- الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك الترمذي ، سنن الترمذي: 370/10 10- البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، صحيح البخاري: 382/15

11- يوسف: 35

12- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن: 77/1

13- ابن عبد البر ، التمهيد: 278/8

14- النساء: 148

15- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن: 200/7

16- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: 312/4، دار صادر – بيروت

17- ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي ، المحرر الوجيز: 215/2

18- النحاس ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوي المعروف بالنحاس ، معاني القرآن الكريم: 227/2 ، جامعة أم القرى – مكة المكرمة 1409 هـ

19- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن: 356/1

20- مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم: 489/13 ، ابن حبان ، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التيمي أبو حاتم ، صحيح ابن حبان: 510/16 ،ابن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، مسند أحمد: 26/18 ،أبو يعلى ، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلي الموصلي التميمي، مسند أبي يعلي: 40/11 .

21- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن: 437/1 .

22- ابن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، سنن ابن ماجه: 449/5 ،ابن حبان ، صحيح ابن حبان: 479/9 ، ابن حنبل ، مسند أحمد: 145/32

23- البزار ، أبو بكر أحمد بن عمرو البصري ، مسند البزار: 133/2